

الاستثناء الوارد في قوله تعالى:

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾

في الآيتين ١٠٧، ١٠٨ من سورة هود
"دراسة تفسيرية"



د. عادل بن عمر بصفر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فلما كان للاستثناء دور في إيضاح المعنى وبخاصة في القرآن الكريم، فقد اخترت لدراسة ذلك هذه الآيات من سورة هود وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [سورة هود/١٠٥-١٠٨].

وقد جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة وفهرسين، فالمقدمة لبيان الموضوع وخطته، والتمهيد عن أقوال العلماء في أبدية الجنة والنار.

والمبحث الأول في تحرير الإشكال في الآيات ومعرفة سبب وقوع الإشكال.

والمبحث الثاني في نوع الإشكال في الآيات وطريقة دفعه.

وقمت بتخريج الآيات والأحاديث، وإذا وجدت الحديث عند الإمامين الجليلين البخاري ومسلم أو أحدهما اكتفيت به غالباً، وبينت الغريب من الألفاظ من مصادره. والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً صواباً، وبالله التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

تمهيد

عن أقوال العلماء في أبدية الجنة والنار

اختلف أهل العلم في أبدية الجنة والنار على أقوال^(١):

القول الأول: الجنة والنار لا تفنيان أبداً، وهذا قول جمهور الأئمة من السلف

والخلف.

القول الثاني: الجنة باقية، والنار فانية، وقال بهذا القول: جماعة من السلف

والخلف^(٢).

(١) انظر: من العقيدة الطحاوية (ج ١ / ص ٤٧٦)، تأليف: أبو جعفر الطحاوي، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. وتفسير الطبري (ج ١٢ / ص ١١٧)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تأليف: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥ هـ. تفسير ابن كثير (ج ٢ / ص ٤٦١)، تفسير القرآن العظيم، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠١ هـ.

(٢) من أدلة القائلين ببقاء الجنة وفناء النار: قوله تعالى: (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله)، وقوله تعالى: (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك).

ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة وهو قوله: (عطاء غير مجدود)، وقوله تعالى: (لا يثنى فيها أحقاباً) وهذا القول - أعني القول بفناء النار دون الجنة - منقول عن: عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد وغيرهم، وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور بسنده إلى عمر رضي الله عنه أنه قال: (لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه) ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: (لا يثنى فيها أحقاباً).

قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي)، وفي رواية: (إن رحمتي تغلب غضبي) رواد البخاري في صحيحه من حيث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه: (عذاب يوم عظيم) و(أليم) و(عقيم)، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم، وقد قال تعالى (قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون)، وقال تعالى حكاية عن الملائكة: (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء العذابين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته.. وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقا يعذبهم أبد الآباد عذابا سرمداً لا نهاية له.

وأما أنه يخلق خلقا يُنعم عليهم ويمسح إليهم نعيماً سرمداً، فمن مقتضى الحكمة والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد به بالعرض.

قالوا: وما ورد من الخلود فيها والتأيد وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام كله حق مسلم لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد، ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

القول الثالث: الجنة والنار تفنيان، وقال به: الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة.

هذا عن اختلاف العلماء في الخلود الوارد في الآيات في النار أو الجنة.

فإلى دراسة الإشكال الوارد في الآيات من خلال المبحثين الآتين:

المبحث الأول: تحرير الإشكال في الآيات، وسبب وقوعه.

المبحث الثاني: نوع الإشكال في الآيات وطريقة دفعه.

* * *

المبحث الأول

تحرير الإشكال في آيات سورة هود،

وبيان سبب وقوعه

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ (١٠٨)﴾ [سورة هود/١٠٥-١٠٨]

أستطيع أن أقول: أنه لا إشكال في الحقيقة في آيات القرآن الكريم^(١)، وإنما الإشكال في ذهن القارئ للقرآن الكريم عند التلاوة، بسبب تفاوت الناس في فهمهم لآيات القرآن الكريم ومعاني، وتباين ثقافتهم فيه، واختلاف درجات إدراكهم لأسراره وحكمه، ودرايتهم بعلومه.

ولكن مما لاشك عندي فيه أن الاستثناء الوارد في هذه الآيات من المتشابه، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) (آل عمران: ٧)، ولا يسعنا إلا أن نقول: (أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا) (آل عمران: ٧)، والنصوص من الكتاب والسنة تدل على أن خلود أهل الجنة في الجنة وما

(١) روى الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (.. إن القرآن لم يزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدقه بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها، فتكون مشكلة بالنسبة إليهم، لعجز فهمهم عن معانيها) انظر: مجموع الفتاوى (ج ١٧ / ص ٣٠٧)، وقال الإمام الشاطبي رحمه الله: (لا تضاد بين آيات القرآن، ولا بين الأخبار النبوية، ولا بين أحدهما مع الآخر، بل الجميع جار على مهيع - واضح واسع - واحد ومنظم إلى معنى واحد، فإذا أداه بادي الرأي على ظاهر اختلاف، فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف لأن الله قد شهد له أن لا اختلاف فيه) انظر: كتاب الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي رحمه الله (ج ٢ / ص ٣١٠) المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

فيها من النعيم، وخلود الكافرين في النار وما فيها من عذاب وجحيم خلود سرمدي أبدي، وتقييد ذلك الخلود بمدة دوام السموات والأرض، والاستثناء بمشيئة الرب تبارك وتعالى مشكل.

سؤال: ما سبب وقوع الإشكال في الآيات؟

السبب هو:

أ- توهم تعارض آيات خلود المؤمنين في الجنة، وخلود الكافرين والمنافقين في النار، مع تحديدها بمدة دوام السموات والأرض، ومع الاستثناء الوارد في آيات سورة هود.

ب- توهم تعارض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الدالة على خلود المؤمنين في الجنة، وخلود الكافرين والمنافقين في النار، مع تحديدها بمدة دوام السموات والأرض، ومع الاستثناء الوارد في آيات سورة هود. لقد أكد الله خلود أهل الجنة في الجنة، وأهل النار من الكفار والمنافقين في النار بالتأييد في عدة مواضع من القرآن، وكذلك في السنة النبوية المطهرة، وإليك بعض النصوص من الكتاب والسنة الدالة على ذلك:

أولاً: الآيات الدالة على خلود أهل الجنة في الجنة على سبيل التأييد:

قال تعالى: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى) (الدخان: ٥٦)، (أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا) (الرعد: ٣٥)، وقوله: (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) (الحجر: ٤٨)، وقوله: (عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (هود: ١٠٨)، أي: غير منقطع، وكذلك قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ) (ص: ٥٤)، (قُلْ أَوْثَبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (آل عمران: ١٥)، (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ

ظِلًّا ظَلِيلًا) (النساء: ٥٧)، (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (المائدة: ١١٩)، (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة: ١٠٠)، (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) (طه: ٧٥ - ٧٦)، (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمٌ أَجْرٌ عَامِلِينَ) (العنكبوت: ٥٨)، (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (لقمان: ٨، ٩)، (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التغابن: ٩)، (رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا) (الطلاق: ١١)، (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) (البينة: ٦-٨).

ثانياً: الآيات الدالة على خلود أهل النار في النار على سبيل التأييد:

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) (البقرة:

١٦٠، ١٦١)، وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) (النساء: ١٦٨، ١٦٩)، وقال تعالى: (وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مُنَوَّاتٌ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (الأنعام: ١٢٨)، وقال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) (التوبة: ٦٨)، قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ) (فاطر: ٣٦)، وقال تعالى: (إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) (الجن: ٢٣)، وقال تعالى: (وَيَجْزِيهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) (الأعلى: ١١-١٣)، وقوله تعالى: (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) (المائدة: ٣٧)، (لا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) (الزخرف: ٧)، (فَذُوقُوا فَلَنْ نُّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) (النبأ: ٣٠)، (وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ) (الحجر: ٤٨)، (حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) (الأعراف: ٤٠)، (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) (الفرقان: ٦٥)، أي مقيماً لازماً.

ثالثاً: الأحاديث الدالة على خلود أهل الجنة في الجنة على سبيل التأييد:

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت)^(١).

قال ابن حجر في الفتح (تنبيه): (مناسبة هذا الحديث والذي قبله لترجمة دخول الجنة بغير حساب الإشارة إلى أن كل من يدخل الجنة يخلد فيها).

(١) رواه الإمام البخاري في الصحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في وصف الجنة: (.. من دخلها ينعم لا ييأس ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم...) ^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله الجنة ما بناؤها قال: (لينة من ذهب ولينة من فضة.. من يدخلها يخلد فيها ينعم لا ييأس، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم) ^(٢). وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ^(٣)، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم.

رابعاً: الأحاديث الدالة على خلود أهل الكفار والمنافقين في النار على سبيل التأييد:

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقتك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا.. فيأتوني فأنطلق حتى أستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله ثم يقال: ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنه ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه فإذا رأيت ربي قلت مثله ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود).

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، في كتاب باقي مسند المكثرين، ورواه الترمذي في كتاب صفة الجنة.

(٢) رواه الدارمي في كتاب الرقاق.

(٣) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج من النار وقال شعبة أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.. رواه الترمذي في كتاب صفة جهنم.

قال أبو عبد الله: (إلا من حبسه القرآن) يعني قول الله تعالى: (خَالِدِينَ فِيهَا)^(١). وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت)^(٢). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط فيقال: يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكافهم الذين هم فيه فيقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم ربنا هذا الموت، ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون فرحين مستبشرين أن يخرجوا من مكافهم الذي هم فيه فيقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم هذا الموت، فيأمر به فيذبح على الصراط، ثم يقال للفريقين كلاهما: خلود فيما تجدون لا موت فيه أبداً)^(٣). فهذه النصوص من الكتاب والسنة تدل على أن خلود أهل الجنة في الجنة وما فيه من النعيم، وخلود الكافرين في النار وما فيها من عذاب وجحيم خلود سرمدى أبدي، وتقيد ذلك الخلود بعمدة دوام السموات والأرض، والاستثناء بمشيئة الرب تبارك وتعالى مشكل.

(١) رواه البخاري في الصحيح في كتاب تفسير القرآن.

(٢) رواه البخاري في الصحيح في كتاب الرقاق، ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفها ونعيمها وأهلها.

(٣) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين.

المبحث الثاني

نوع الإشكال في الآيات وطريقة دفعه

أ- التعارض الظاهري بين النصوص الدالة على خلود المؤمنين في الجنة، وخلود الكافرين والمنافقين في النار، مع تحديدها بمدة دوام السموات والأرض، ومع الاستثناء الوارد في آيات سورة هود.

ب- طريقة دفع الإشكال في الآيات:

أولاً: لدفع الإشكال في قوله تعالى: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) نقول وبالله التوفيق: يحمل المعنى على عادة العرب في لغتهم، وأنهم إذا أرادوا وصف الشيء بالدوام قالوا: هذا دائم دوام السموات والأرض.

قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: (ويعني بقوله: (مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) أبداً، وذلك أن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، بمعنى أنه دائم أبداً).

وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، وما سمر لنا سمر، ولألأت العفر بأذنابها، يعنون بذلك كله أبداً، فحاطبهم - جل ثناؤه - بما يتعارفون به بينهم فقال: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) والمعنى: في ذلك خالدين فيها أبداً^(١).

ثانياً: ويجوز حمل معنى (السموات والأرض) على الجنس.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قول الله تبارك وتعالى: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) "قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري (ج ١٢ / ١١٧) تفسير سورة هود.

الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (إبراهيم: ٤٨)، ولهذا قال الحسن البصري في قوله: (مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) قال: يقول سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض^(١).

ولدفع الإشكال عن أهل النار وجهان:

أولاً: لدفع الإشكال في قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ).

يحمل الاستثناء الوارد في الآية السابقة على أهل التوحيد من أهل الكبائر أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبداً إلا ما شاء من تركهم فيها أقل من ذلك ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة والله أعلم.

قال الإمام ابن جرير رحمه الله: (وأولى هذه الأقوال في تأويل هذه الآية بالصواب: القول الذي ذكرناه عن قتادة والضحاك: من أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكبائر أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبداً إلا ما شاء من تركهم فيها أقل من ذلك ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة)^(٢).

ثانياً: لدفع الإشكال في قوله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ) يحمل الاستثناء في حق الذين سعدوا برحمة الله فيمن أخرج من النار من المؤمنين فأدخل الجنة.

قال الإمام ابن جرير رحمه الله: (وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القول الذي ذكرته عن الضحاك وهو: وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من قدر مكنهم في النار من لدن دخولها إلى أن

(١) انظر تفسير ابن كثير (ج ٢ / ص ٤٦١) تفسير سورة هود (١٠٧).

(٢) تفسير الطبري (ج ١٢ / ١١٧).

أدخلوا الجنة، وتكون الآية معناها الخصوص، لأن الأشهر من كلام العرب في (إلا) توجيهها إلى معنى الاستثناء، وإخراج معنى ما بعدها مما قبلها، إلا أن يكون معناها دلالة تدل على خلاف ذلك، ولا دلالة في الكلام، أعني في قوله: (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) تدل على أن معناها غير معنى الاستثناء المفهوم في الكلام فيوجه إليه^(١).

* * *

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري (ج ١٢ / ١١٧) تفسير سورة هود.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

لقد شعرت أثناء استعراض أقوال المفسرين في تفسير آيات سورة هود بأن هذه المسألة من المشكل حقاً، وأني في وسط أمواج بحر لا ساحل له من الأقوال والآراء في تفسيرها، وخشيت أن لا أستطيع أن أدفع الإشكال الوارد فيها.

عند ذلك لجأت إلى الله تعالى بالدعاء أن يفتح علي في فهمها، وأن يلهمني الرشد والصواب، فأجرى الله قلبي بما تيسر، وتم بحمد الله تعالى فهم الإشكال وإزالته مدعوماً بأقوال المفسرين والأدلة الشرعية، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان غير ذلك فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان.

وصل اللهم وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي.
- ٣- تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
- ٤- جامع البيان عند تأويل آي القرآن للطبري.
- ٥- سنن الترمذي.
- ٦- سنن الدارمي.
- ٧- صحيح البخاري.
- ٨- متن العقيدة الطحاوية لأبي جعفر الطحاوي.
- ٩- مجموع الفتاوى لابن تيمية.
- ١٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل.

* * *

